الشعب والحكومة فى الإصلاح

بقلم حسن الشريف

نلاحظ بغبطة وسرور أن الاهتمام بالمسائل الاجتماعية وبالإصلاح الاجتماعى قد ازداد فى مصر ازديادا محسوسا منذ أنشأت الحكومة وزارة للشؤون الاجتماعية . وهذا دليل على أن فى أمتنا غرائز خيرة كثيرة ، تنشط إلى العمل الصالح متى نبهت إليه .

ولكن التنبيه إلى العمل الصالح والتنبه إلى وجوبه لا يكفيان . بل يجب فهم هذا العمل أولا ، ثم تنظيمه وتوزيعه ثانيا ، ثم تنسيق الجهود القائمة به أخيرا .

بهذه الطريقة نستطيع أن نعمل عملا منتجا وأن نصل إلى غاية معينة . أما الرغبة فى الإصلاح كيفما اتفق ، وتزاحم الجهود حيث يجب أن تتوزع ، وتوزعها حيث يجب أن تتجمع ، واختلاف أساليب التفكير فيما يجب وفيما لا يجب ، وتباين وجهات النظر فيما يحسن أن نبدأ به وفيما يحسن أن ننتهى إليه ، كل هذه فوضى تنم على أن فينا حافزا للعمل ، ولكنها على كل حال فوضى لا يستقيم بها أمر ، ومحال أن يتحقق معها إصلاح صحيح .

فنحن إذ ننشد الإصلاح الاجتماعى ونعمل له ، يجب أن نعرف أمراضنا الاجتماعية قبل كل شىء ، وأن نعرف وسائل علاجها بعد ذلك . فإذا ما وثقنا من أننا أحسنا تشخيص الداء وأحسنا وصف الدواء ، بقى علينا أن نعرف كيف نتعاون حكومة وشعبا — على حمل أعباء الإصلاح الاجتماعى فى هذه البلاد .

لقد ألفنا فى مصر أن نعتمد على الحكومة فى كل شىء وأن نحيل عليها جميع الأعباء . فهى المطالبة بتعليم الشعب وتربيته ، وبإنشاء الملاجئ والمستشفيات ، وبترقية الزراعة وإيجاد الصناعات ، وبتوفير العمل للمتعطلين والوظائف للمتعلمين ، وهى المطالبة أيضا بإبطال البدع ومقاومة الخرافات والقضاء على العادات السيئة والأخلاق الممقوتة ، وبغير ذلك مما يجب أن يعتبر بعضه أو أكثره من واجبات الأمة قبل أن يكون من واجبات الحكومة ، أو على الأقل من واجبات الأمة والحكومة متعاونتين .

ولكن استقراء تاريخ الحضارة الحديثة يدلنا على أن الإصلاحات الاجتماعية إنما قامت بها الشعوب قبل أن تتولاها الحكومات ، بل يدلنا على أن عمل الحكومات فى تلك الإصلاحات لم يزد على الرعاية والرقابة والتوجيه .

والواقع أنه لايمكن لحكومة أن تسبق الشعب إلى الإحساس بحاجاته ، وإنما هى تستمد منه قوتها ، وتسترشد برغباته فى إصلاحاتها ، وتجد الحافز على الإصلاح فى تلك الحاجات والرغبات . وليس من طبائع الأشياء أن تنشط حكومة ما دام الشعب راكدا ، ولا أن تركد حكومة إذا نشط الشعب وألح فى طلب التغيير والإصلاح .

والشعب لا ينشط إلا إذا انتشر النور بين طبقاته ، وأصبح ذا وجدان مرهف يدله على حقيقة نقائصه ومشكلاته الاجتماعية . وهو عندئذ لا يبعث الحكومة على الإصلاح فقط ، وإنما ينبعث أفراده بأنفسهم على هذا الإصلاح .

والحقيقة أن فضيلة السبق إلى التفكير والابتكار L'initiative يجب أن تكون وأن تظل فضيلة شعبية . فالشعب يبدأ بالإصلاح صغيرا ويسير فيه شوطا ، ثم تجئ الحكومة فتستأنس بالخطى التى سبقت إليه فتأخذ به وتستخدم قواها للتوسع فيه . وهذا هو الذى حدث بالفعل فى البلاد المتمدنة . فإن ميزة الابتكار فى جميع تلك البلاد كانت للشعوب قبل أن تكون للحكومات .

لقد كان التعليم المدرسى والجامعى فى انجلترا إلى وقت قريب العهد مجهودا شعبيا خالصا وليس هذا بالغريب فى الأمم الديمقراطية ، لأن الشعب الذى يضطلع بتبعة الحكم يجب أن يضطلع بتبعات الاصلاح .

ولا أظننى أنبئ القراء بجديد إذا قلت لهم أن حكومة الولايات المتحدة بأمريكا لا توجد فيها وزارة معارف وأن التعليم هناك تشرف على أموره مصلحة فى وزارة الداخلية . وليس معنى هذا أن الحكومة الأمريكية لا تعنى بشؤون التعليم ، وإنما معناه أنها وجدت من نشاط الشعب فى تأسيس المدارس والجامعات ما أغناها عن إنشاء وزارة للتعليم . وهكذا يتعاون الشعب والحكومة فى هذا الميدان بحيث يبقى نصيب الشعب فى هذا التعاون أكبر من نصيب الحكومة بكثير ، والدليل على ذلك أن مدارس الحكومة وجامعاتها هناك هى دون مدارس الشعب وجامعاته فى العدد وفى فخامة البناء وتأثيث المعامل واختيار المدرسين .

ولقد قام الشعب الانجليزى بحركة التعليم بما كان له من جمعيات خيرية ، ثم جاءت الحكومة فتوجت هذا المجهود الشعبى بقانون للتعليم الإلزامى صدر فى سنة ١٨٧٠ ولكنها لم تنشئ وزارة للمعارف إلا منذ ثلاثة وأربعين عاما فقط .

وما التعليم مع هذا سوى واحد من الاصلاحات التى تعاونت فيها الحكومة والشعب ، وكان فضل السبق إليه للشعب لا للحكومة . أما شؤون الصحة والتعاون الصناعى والزراعى وإيواء اليتامى والعجزة وإنشاء المؤسسات الخيرية فقد قام بها الشعب المستنير فى أوروبا

وأمريكا ، ثم ساهمت الحكومات فى توسيعها وتنمية مشروعاتها . مثال ذلك أن المستشفيات كانت حتى عهد قريب فى انجلترا من عمل الشعب ومجهوده لا دخل للحكومة فيها . ولا تزال المصحات والمستشفيات الأهلية تفضل مستشفيات الحكومة وتمتاز عليها ضخامة وسعة وأثاثا واطباء ومعامل .

وكلنا يعرف أن الحكومة البريطانية تأخذ على عاتقها تأمين العمال من التعطل والمرض والشيخوخة ، وتأمين الأم من نفقات الولادة وتكاليفها ، وهذه الأنواع من التأمين وغيرها تقتضى من الحكومة مبالغ طائلة تحسب بمئات الملايين من الجنيهات . ولكن يحسن ألا ننسى أن هذه التأمينات كلها قد قامت بها من قبل جمعيات الصداقة Friendly Societies وهى جمعيات أسسها العمال والفقراء متضامنين متعاونين على تفريج الضائقة التى قد تحل بواحد منهم فى يوم من الأيام .

و إنشاء الملاجئ كان ومايزال من عمل الشعب . وتلك بيوت برناردو Barnardo Homes فى انجلترا واسكوتلندا والمستعمرات البريطانية الحرة مفخرة من مفاخر الشعب الانجليزى ومثال للبر الاجتماعى الذى يمارسه أفراد هذا الشعب . وبيوت برناردو كما هو معروف ملاجئ تربى وتعلم وتستخدم كل من يلجأ اليها من اليتامى وأبناء الفقراء .

* * *

فى الحكومات العصرية نزعتان متعارضتان : نزعة تميل نحو التدخل الحكومى فى أعمال إصلاحية كانت إلى وقت قريب مما لا تبالى به الحكومة أو مما تتركه للشعب يقوم به وحده . فقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تعرف شيئا من التأمينات الاجتماعية للعمال والفقراء . ولكن الرئيس روزفلت فيما يسمى مشروع "الصفقة الجديدة New Deal" قد كلف حكومته نحو ستة مليارات جنيه (جنيه لا دولار) انفقت كلها فى أنواع من أعمال التأمين والإسعاف .

وهناك حكومات تمنح الأفراد مكافآت مالية تشجعهم على التزاوج والتناسل . وهناك حكومات تبنى منازل للعمال وتشارك الشركات الصناعية فى أعمالها ولعل أغرب مثال لذلك هو اشتراك حكومة السويد فى صنع الخمور وبيعها ، حتى أنها جعلت الساقى (Bar man) فى الحانات موظفا من موظفى الدولة . وهو بهذه الصفة لا يهمه أكثر زبائنه أم قلوا ، فلا يقدم الخمر لقاصر ولا يعطى منها لسكران ولا يبيع زجاجة مقفلة الا ببطاقة رسمية . فالتدخل الحكومى هناك يقصد منه التقييد المنظم لتجارة ثبت أن ضررها أكبر من نفعها .

وهذا الميل نحو التدخل الحكومى تقول به الأحزاب الاشتراكية وتستند فيه على أن التطور الصناعى اذا كان قد نجح فى زيادة الانتاج فهو قد عجز عن زيادة الاستهلاك وأن الأزمات الاقتصادية المتكررة تنشأ من تلك الزيادة فى الانتاج مع هذا العجز فى الاستهلاك .

على أننا اذا وجدنا هـذا النوع من التفكير الاجتماعى متطرفا من ناحية ، فاننا نجد ما يقـابله فى النزعة الأخرى . فهربرت سبنسر يذهب الى أن من واجب الحكومات أن تقتصر مهمتها على تحقيق أمن الدولة وسلامة الأمة أى على تنظيم الجيش للدفاع ضد عدو أجنبي ، وتنظيم القضاء والبوليس للدفاع ضد عدو داخلى . أما بعد هذا فليس على الحكومة من واجب ، وانمـا على الشعب وحده أن يقوم بأمور الصحة والتعليم وغير ذلك .

رأيان على طرفى نقيض . أما الحقيقة فى اعتقادى . فهى كامنة بين هذين الطرفين . فان تدخل الحكومة ليس محمودا فى كل شيء ، واقتصارها على الأمن العام للدولة والأمة لا تعززه مشاهدات الحاضر ولا مشاهدات المـاضى . فالدفاع ضد العدو الخارجى يحتاج الى جيش ، والجيش — كما يقول نابليون — يمشى بمعدته ، أى يمشى متى صح وشبع . ومن هنا نرى أن الصحة جزء مهم من أمن الدولة وسلامتها . وكذلك فان الحكومة الديمقراطية لا يمكنها أن تعيش ولا أن تنتج فى شعب جاهل لا يفهمها ، لأن جهـل الشعب يجعله لا يستسيغ أعمالها و يعرضها لقلاقل وانقلابات مستمرة ، ومن ذلك نفهم أن تعليم الشعب شرط لأمن الدولة . وعند ما تتقدم الصناعات الآلية والميكانيكية فى أمة ، يحدث التعطل بين العمال الزراعيين والصناعيين فتقع الحكومة فى مشكلة اجتماعية تحتاج الى الحل السريع . وعندئذ يدعو الأمن العام الى تحاشى مساوئ هذه المشكلة بكفالات و إعانات تمنحها الدولة للعمال المتعطلين .

وهكذا نرى أن علاج مشكلات الاصلاح والانشاء والتعمير عمل لا تستغنى الحكومة فيه عن الشعب ولا يستغنى الشعب عن الحكومة ، بل يجب أن يظل موضـوعاً للتعاون الدائم بينهما .

ونحن فى مصر نعرف أمثلة كثيرة لاصلاحات عديدة قام بها الشعب وسبق الحكومة اليها ، ولكنها أثمرت ثمرتها الطيبة عندما تعاون عليها الشعب مع الحكومة ، فكان للشعب فيها فضل الحافز والعامل اذ أحس الحاجة اليها فجعل يدرس مشروعاتها و يخطط أسسها ثم أخذ فى انشائها والسير فيها حتى تحققت ونمت ، وعندئذ تدخلت الحكومة فأمدت هـذه المشروعات بقوتها المـالية فضاعفت فوائدها وعممت ثمراتها .

هذه مثلا جامعة فؤاد الأول ، أنشأها الشعب المصرى عند ما أحس حاجة الى الثقافة العالية . ولقد سارت هذه الجامعة مدة طويلة لا تجد غير رعاية الجمهور سندا لها . ولكن سـيرها كان يتسم بالبطء والضعف الى أن جاءت الحكومة وتعاونت مع الشعب . وهنا وجدت الجامعة المعونة الكبرى فبرزت مضطلعة بكل أعباء الثقافة العصرية .

وتاريخ تلك الجامعة هو تاريخ جهد شعبى لا يخفى مغزاه على أحد من المصريين .

وأبرز من هذا المثل مثل المدارس الأهلية التى أنشأها الشعب فى أنحاء البلاد لتعميم التعليم . فإلى سنة ١٩٢٤ لم يكن لوزارة المعارف مدرسة ثانوية للبنات ، أما الشعب فكان له عدد من هذه المدارس . وعند ما نذكر الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة الوثقى وجمعية المساعى المشكورة والجمعيات الخيرية القبطية تمثل أمام أعيننا جهود الشعب المصرى فى سبيل نشر التعليم ، تلك الجهود التى عاونتها وزارة المعارف بالإعانات المالية الكريمة وبالاشراف اليقظ وبالتوجيه السليم .

فمسألة التعليم فى مصر كانت وستبقى مسألة التعاون بين الشعب والحكومة .

ونحن حين نسمع أن فى جامعة فؤاد الأول زهاء ثلاثمائة فتاة مصرية يتعلمن فى كلياتها المختلفة ، يجب أن نذكر بفخار أن لمجهود الشعب الفضل الأول فى هذا الانتصار الثقافى وأن فضل الحكومة إنما يأتى فى المكان الثانى . وبعبارة أخرى يجب أن نقول أن التعاون بين الشعب والحكومة هنا قد أثمر أحسن الثمرات .

والأزهر . لقد كان هذا المعهد العظيم يعيش بمجهودات الشعب وحدها أى بالأوقاف التى حبسها عليه رجال البر فى الأزمان الماضية . والشعب المصرى مفطور على البر محب للإحسان ، كما تدل على ذلك المساجد والكنائس فى أنحاء مصر .

ولكن العصر الحديث قد استحدث حاجات جديدة تحتاج الى بر من نوع جديد . فالمدينة العصرية التى تزدحم بالأطفال المتعطلين هى غير القرية التى كان الصبى فيها يعمل عمل أبيه فى الزراعة أو فى رعاية الماشية . وهذا الصبى يحس اليوم حاجات لم يكن يحسها الذين من قبله ومن هذه الحاجات ما يجب أن يستجاب حتى لا يشب الطفل شاعرا بحرمانه من معرفة القراءة والكتابة والحساب والمسليات البريئة المفيدة . كذلك المستشفيات والمستوصفات والملاجئ قد أصبحت تنادى أهل البر وأصدقاء الإنسانية ، لأن أخطار المدينة وأمراضها وأمراض الريف تتطلب الإكثار من تلك المبرات . ومثل هذا يقال أيضا فى المدارس التى بتنا فى حاجة الى المئات بل الآلاف منها ، وفى الشبان الذين يحتاجون إلى أندية رياضية تحول بينهم وبين المفاسد .

هذه المنشآت وغيرها هى من مبتكرات الشعوب فى البلاد المتمدنة لم تتدخل الحكومات فى أمرها الا معاونة أو منظمة .

وكلما تعقدت المشكلات الاجتماعية ازدادت الحاجة الى اطالة التفكير والتدبر فى اختيار النوع الأنسب من الإحسان وإيثار لون من البر على لون آخر . والروية فى مسألة الإحسان خير من التسرع والارتجال . وهنا يطيب لى أن أذكر اسم روكفلر الثرى الامريكى العظيم .

فقد حبس ملايين من الجنيهات على أعمال البر ولكنه ترك تعيين نوعها الى لجنة خاصة عرف أنها أدرى منه بقيمة الخدمات التى تعود على الانسانية من لون من ألوان البر دون غيره . أما هنا فى مصر فمعظم البر متجه الى إنشاء المساجد والزوايا . وقد تكون القرية عندنا فى جهة ما محتاجة الى مسجد ، وقد تكون فى جهة أخرى حافلة بالمساجد ولكنها تخلو من مستشفى أو ملجأ أو مستوصف . ففى هذه الحالة نحتاج الى دقة التمييز وحسن الاختيار .

والثرى فى أمريكا لا يعتمد على نفسه كل الاعتماد فى تعيين نوع الإحسان الذى يريد أن ينفق فيه ما يحبس من أموال ، بل هو يستشير ويردد الرأى ويدرس الموضوع.

وفى جميع المدارس الأهلية الانجليزية مكافآت (Scholarships) ينتفع بها التلاميذ الأذكياء إذ تتحمل المدرسة تكاليف دراستهم العالية فى إحدى الجامعات ، وقد تزيد على ذلك إمدادهم بالمعونة المالية إذا ضاق بهم أهلهم أو عجزوا عن الإنفاق عليهم ، وهذا بر نكاد لا نعرفه فى مصر ، وجهلنا به يحرم الأمة الانتفاع بذكاء أو نبوغ الكثيرين من أبنائها الفقراء ، ولست أعرف من كنوز الأمة الطبيعية ما يساوى النبوغ الخام الذى يقبر دون أن تتاح له فرصة النماء .

فى كل هذه الأشياء : أى فى إنشاء الأندية لشباب المدن ، وتأسيس المدارس ، ورصد المكافآت المالية لأبناء الفقراء الأذكياء ، وإنشاء الملاجئ لليتامى والعاجزين ، وإقامة المستشفيات للمرضى والمصابين ؛ يجب أن يتعاون الشعب مع الحكومة تعاونا وثيقا يكفل خير النتائج وأحسن الثمرات ، والشعب حين يتجه الاتجاه الاجتماعى الصحيح لا يتنبه فقط إلى واجباته بل يتنبه أيضا إلى حقوقه ، لأنه إذا كان سيسخو بماله لإقامة مستشفى شعبى مثلا ، فانه سيقف موقف الرقيب الدقيق على ميزانية الدولة حتى إذا وجد بابا من أبواب الاسراف ألح فى إقفاله ، إذ لا معنى لأن يتبرع الشعب بماله حرا مختارا وهو يجد التبذير فى أموال الدولة التى جبتها من الضرائب .

على أن السخاء والتبرع والإحسان ليست مقصورة على بذل المال ، فانه همة الشباب عند ما تتوجه إلى الخير تكون نوعا من أنواع البر والإحسان ، ولقد استطاع عدد كبير من الطلبة أن يبتكروا المنشئات الاقتصادية والخيرية ولم يكن لديهم من سند يستندون إليه غير النشاط ، ثم جاءت الحكومة فتوجت جهودهم كما رأينا فى مشروع القرش وكما نرجو أن نرى فى مشروعات أخرى .

حسن الشريف